ملامح الصعلوك في لامية العرب

The Features of the Wretch in Lamiyyat Alarab

أ.د. عبد الرحمن بن أحمد السبت
الأستاذ في قسم اللغة العربية بكلية التربية بالزلفي - بجامعة المجمعة
البريد الشبكي: a.alsabet@mu.edu.sa

Prof. Dr. Abdulrahman bin Ahmad Alsabt
Professor in the Department of Arabic Language, College of Education in Zulfi, Majmaah University
Email: a.alsabet@mu.edu.sa

https://doi.org/10.56760/JBUZ1179

ملخص البحث

يسعى هذا البحث الموسوم بـ: "ملامح الصعلوك في لامية العرب" إلى الكشف عن بعض الملامح الخُلقية والخَلْقية للصعلوك في قصيدة "لامية العرب" للشنفرى.

جاءت سمات متنوعة للصعلوك من خلال وصف الشنفرى نفسه، واعتداده بتلك السمات الخُلُقية التي تتعلق بطبيعته الخاصة، وتميزه بفضائل الأمور ومحاسن الأخلاق، إذ أبانت الدراسة عن سمات: الغربة والعزلة والتفرُّد في حياة الصعلوك الخاصة، كما وصف الشنفرى نفسه بـ: الشجاعة، والصبر وقوة التحمُّل، وعزَّة النفس، والعفة، والزهد، وكثرة الهمِّ والغمِّ، والتواضع، والحلم، والحزم، والاعتداد بالرأي، والترفُّع عن النميمة.

وتحدث البحث عن السمات الخَلْقية التي تختص بالشكل والهيئة والمظهر الخاص بالصعلوك المتمثلة في حياة الشنفرى، وكشفت عنها دراسة اللامية، ومن هاته السمات: نحافة الجسم، وعدم الاهتمام بالمظهر، وسرعة العدو الذي لا يُجارى.

واتَّضح لي نهاية البحث التركيز الواضح من الشنفرى في حياته مع الصعلكة على الخصائص الخُلقية، وهي الأهم في الجانب الإنساني، وبها يقاس المرء في هذه الدنيا، إذ العبرة بالمخبر لا بالمظهر.

الكلمات المفتاحية:
ملامح - الصعاليك - الشكل - الأخلاق - الشنفرى - لامية العرب.

Abstract

This study, entitled "The Features of the Wretch in Lamiyyat Alarab", seeks to reveal some of the moral and congenital features of the Wretch in the poem "Lamiyyat Alarab" by Alshanfari.

Various characteristics of the Wretch were identified when Alshanfari describes himself, thinks well of moral traits that relate to his own nature, and distinguishes him with virtues and good manners. The study points out the characteristics of: alienation, isolation, and exclusivity in the Wretch's own life. In fact, Alshanfari describes himself as: courageous, patient, resistant, self-esteemed, virtuous, ascetic, worried, humble, modest, firm, respectful of opinion, and refraining from gossip.

The study approaches the congenital features that pertain to the shape and appearance of the Wretch represented in the life of Alshanfari, which are also revealed by the study of Lamiyyat Alarab. Some of these features are: thinness of the body, lack of interest in appearance, and the incomparable fast running.

The study concludes that Alshanfari, in his wretched life, focuses on moral characteristics as the most important human aspect by which one is evaluated, since it is not the appearance, it is the essence.

key words:
Features - Wretch - Shape - Morals - Alshanfari - Lamiyyat Alarab.

مقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَنْ لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين، أما بعد:

فإنَّ الشعر العربي القديم تراثٌ نفخر به، ونعتزُّ بلغته، فهو وسيلة من وسائل فَهْم ألفاظ القرآن الكريم وتراكيبه، فقد نزل بلسان عربي مبين، كما أنَّ هذا الشعر يهذِّب النفوس، ويسمو بالأخلاق، ويرشد إلى فضائل الأمور، ويحذِّر من رذائلها.

وللشعراء الصعاليك سمات في أشعارهم، يشتركون في بعضها مع شعراء آخرين، وينفردون في جزء آخر في الخصائص والملامح التي تحدَّثوا عنها في

معانيهم، ووصفوا أنفسهم بها؛ نظرًا لعيشهم في مجتمع منعزل في الصحراء، فكان ذلك من أهم الأسباب التي جعلتني أبحث عنها للوقوف على أهم السمات الخَلْقية أو الخُلُقية، ولذلك اخترت قصيدة من عيون الشعر العربي عامة، وشعر الصعاليك خاصة، وهي "لامية العرب" للشنفرى، للوقوف على تلك الخصائص والحديث عنها بما تسمح به حدود الدراسة، معتمدًا على النسخة التي أثبتها الزمخشري في كتابه الموسوم بـ: "أعجب العجب في شرح لامية العرب".

وبعد قراءة القصيدة والتمعُّن في أهم سمات الصعاليك فيها اخترت المنهج الوصفي التحليلي للدراسة، فهو الأنسب لتحليل السمات التي اتَّصف بها الشنفرى في لاميته، إذْ لم أجد دراسة مستقلة عن الملامح الخُلُقية أو الخَلْقية للصعلوك في اللامية، ولكنني وجدت إشارات سريعة لبعض صفات الصعاليك، وهي تعدُّ من الدراسات السابقة لهذا البحث، وهي على النحو الآتي:

- بلوغ الأرب في شرح لامية العرب، الزمخشري وآخرون، جمع وتحقيق: محمد عبدالحكيم القاضي، ومحمد عبدالرزاق عرفان، إذْ جاء في تمهيد الكتاب ذكْر لبعض القيم العربية، ودراستي ستكون مستفيضة بشكل أوسع، ومقسَّمة إلى سمات تتعلق بالخُلق، وأخرى للهيئة والشكل، وسأدرسها دراسة تحليلية وصفية لتلك الخصائص، مع إشارات إلى أهم الأساليب اللغوية التي اعتمد عليها الشنفرى في إبراز ملامح الصعاليك من خلال وصف نفسه في قصيدته.
- شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، د. عبدالحليم حنفي، الذي ذكر بعض صفات الصعاليك أثناء الحديث عن موضوعات شعرهم بوجهٍ عام.
- موسوعة الشعراء الصعاليك، د.حسن جعفر نور الدين، وهي مشابهة إلى حدٍّ كبير للدراسة السابقة.

فما جاء في هاتين الدراستين عام في أوصاف الصعاليك، ولم يرد مما ذكره الشنفرى في لاميته إلا القليل، أما دراستي فهي استقصائية للصفات الخَلْقية والخُلُقية مما ذكره الشنفرى في لاميته، مع تحليل تلك السمات، وربطها بالجانب اللغوي الذي جاء في أثناء وصف الشاعر نفسه بها.

وقسَّمتُ البحث إلى: مقدمة، ثم تمهيد مختصر عن: الصعاليك، ولامية العرب، والشنفرى.

ثم جاء المبحث الأول: وفيه حديث عن أهم الملامح الخُلُقية للصعلوك الشنفرى في لامية العرب، وتتمثَّل في: الغربة والعزلة والتفرُّد، والشجاعة، والصبر وقوة التحمُّل، وعزَّة النفس، والعفة، والزهد، وكثرة الهمِّ والغمِّ، والتواضع، والحلم، والحزم، والاعتداد بالرأي، والترفُّع عن النميمة.

أما المبحث الثاني، فتحدثتُ فيه عن أهم الملامح الخَلْقية للشنفرى في لاميته، وتتمثَّل في: النحافة، وعدم الاهتمام بالمظهر، والسرعة.

ثم جاءت الخاتمة، وفيها أهم النتائج والتوصيات.

ثم فهرس المصادر والمراجع.

والله أسأل العون والتوفيق والسداد، إنه سميع مجيب.

تمهيد:

١ - الصعاليك:

الصعلوك في اللغة: "الفقير الذي لا مال له، زاد الأزهري: ولا اعتماد" (ابن منظور، ١٤١٠هـ، مادة صعلك، ١٠/ ٤٥٥)، قال الأعشى: (الأعشى، ١٤٠٧هـ، ٣٥):

على كلِّ أحوالِ الفتى قَدْ شَرِبتُها
غنِيًّا وصعلوكًا ومَا إنْ أفَاتُها

"والتصعلك: الفقر، وصعاليك العرب: ذؤبانها". (ابن منظور، ١٤١٠ه، مادة صعلك، ١٠/ ٤٥٦). قال حاتم الطائي (الطائي، ١٤٠٦هـ، ص٢٤):

عُنينا زماناً بالتَّصعلُكِ والغِنى
وكُلًّا سَقَاناهُ بكأسَيهما الدَّهرُ

فالصَّعلكة في مفهومها اللغوي: الفقر الذي يجرِّد الإنسان من ماله، ويغلق أبواب الحياة أمامه، ويجعله مقهورًا ضامرًا هزيلًا بين أصحاب الغنى الذين أتخمهم المال. (خليف، ١٩٧٨م، ٢٢-٢٣). ويرتبط بالصعلكة ألفاظ أخرى، أشهرها: لص، وذئب، وفاتك، وخليع، وبعضها ألصق بالصعلكة من بعض، وأقربها إلى المدلول العرفي للصعلكة هو: اللص، وهذه الألفاظ أشبه ما تكون بأساليب سلوكية ينتهجها أهل الصعلكة. (حفني، ١٩٨٧م، ٢٠- ٢٦).

أما في الاصطلاح الأدبي فإنهم: مجموعة من شذَّاذ العرب الذين امتهنوا السلب والنهب، وسهروا لياليهم على الإغارة والغزو وقطع الطريق، ثم يلوذون بالفرار معتمدين على سرعتهم، ومعرفتهم بطرق الصحراء، ومسالك الجبال وشعابها. (خليف، ١٩٧٨م، ٢٤-٢٨)، يقول عمرو بن برَّاقة (الأصفهاني، ١٤٢٢هـ، مج ١١، ج ٢١/ ١٨٢- ١٨٣):

تقولُ سُليمى: لا تعرَّض لتلفةٍ
وليلك عن ليلِ الصعاليك نائمُ

وكيفَ ينامُ الليلَ مَنْ جُلَّ مالهِ
حُسامٌ كلونِ المِلحِ أبيضُ صارمُ

أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ الصَّعاليكَ نومُهم
قليلٌ، إذا نامَ الدَّثورُ المسالمُ

٢- لامية العرب:

تتبوأ قصيدة "لامية العرب" مكانة كبيرة في الشعر العربي، وهي تزاحم المعلقات في المنزلة، ويعود الفضل في ذلك إلى ما فيها من جودة فنية، وطرافة المشاهد المصوَّرة فيها من حياة فئة مجتمعية خاصة بالصعاليك، بالإضافة إلى ما فيها من مادة لغوية وفيرة أغرت العلماء بالخوض في إعرابها وشرحها. (الحلواني، ١٤٠٣هـ، ٦).

وتعدُّ اللامية من عيون الشعر العربي، إذْ عدَّها الخالديان من أجود أشعار العرب. (الخالديان، ١٩٦٥م، ٢/ ١٥)، فهي درَّة لامعة في الأدب العربي كلِّه، وقد تكون هناك قصائد نالت شهرةً بسبب ارتباطها بأحداث معينة، ولكن لا توجد قصيدة تنافس اللامية في موضوعها بالذات، وفي مقدرتها الفنية من الناحية التصويرية والتعبير عن حياة الصعلكة، ووصف بيئتهم التي اختاروها للعيش فيها وممارسة أنشطتهم وغاراتهم (حفني، ١٩٨١م، ٨٤). وهذه اللامية "تنطق بلسان البادية الأولى، وحياة التشرد والعنفوان". (لجنة من الأساتذة بالأقطار العربية، ١٩٦٩م، ٧٢)، وسمَّاها بعضهم: "نشيد الصحراء". (لامية العرب "نشيد الصحراء"، ٣٠)، وجاءت القصيدة في (٦٨) بيتًا على بحر الطويل، واختلفوا حول نسبتها للشنفرى بعد أن استمرتْ نسبتها له دون شكٍّ نحو قرن قبل الإسلام، وثلاثة قرون بعده، ثم جاء ابن دريد الذي شكَّك في نسبتها للشنفرى ونسبها لخلف الأحمر. (حفني، ١٩٨١م، ٨٦- ٨٧)، ومع ذلك جاءت مطابقة لشخصيته وعقليته وظروفه المحيطة به، فتتراءى شخصيته كأنها ماثلة أمامك مما يؤيد نسبتها إليه، ويكفي أنَّ القالي في كتابه: "الأمالي"، والزمخشري في كتابه: "أعجب العجب في شرح لامية العرب"، والنويري في كتابه: "نهاية الأرب" لا

يبدون شكًّا في نسبتها له. (حفني، ١٩٨٧م، ١٧٣).
وقد اعتنى باللامية كثير من النقَّاد والأدباء العرب منذ القدم، وأبرزهم: المبرد، وثعلب، وابن دريد، والتبريزي، والزمخشري، والعكبري، وابن زاكور المغربي، وترجمت إلى عدة لغات، منها: الفرنسية، والألمانية، والإنجليزية، واليونانية، والإيطالية، كما عُني بها كثير من المستشرقين وحقَّقوها (لامية العرب "نشيد الصحراء، ٤٤-٤٥)، فهي من أروع الأشعار في العصر الجاهلي، وهي قصيدة يتغنَّى بها المتأدِّبون وأهل الحكمة، ويقال إنَّ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كان يحثُّ الناس على تعلُّمها، ويُنْسَب إليه أنه قال في فضلها: "علِّموا أولادكم قصيدة الشنفرى، فإنها تعلمهم مكارم الأخلاق"، (القاضي، ١٩٨٩م، ص٥١).
وسمِّيت بـ"لامية العرب"؛ لأنَّ قافيتها (لام)، وقائلها عربي تحكي جملة من صفاته وملامحه، وخصائص مجتمعه الصعاليك، وهناك لامية أخرى تقابلها وأطلق عليها "لامية العجم" للطغرائي، وبين إنشاء القصيدتين مدة تصل إلى نصف قرن. (الشنفرى، ١٩٨٥م، ٤٦- ٤٧).

٣- الشنفرى:

اختلفت الروايات حول اسمه، فذكر الزمخشري أنه (الشنفرى) واكتفى، أما المبرد فتتبع نسبه فقال: الشنفرى بن الأوس بن الحجر بن الأزد بن الغوث بن نبت بن زيد بن كهلان بن سبأ، قال أبو العباس: الشنفرى البعير الضخم، وقيل: العظيم الشفتين (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ١١).
ومنهم من قال: إنَّ الشنفرى اسم له أو لقب، ثم قال: واسمه: عامر بن عمرو الأزدي (البجاوي، د.ت، هامش*/ ٣٧٩)، وقيل إنه: ثابت بن أوس الأزدي الملقب بالشنفرى (صفدي وآخرون، ١٩٧٤م، ٦١).

نشأ صغيرًا في بني سلامان عندما أسروه وهو طفل صغير، وفي أحد الأيام قال لابنة الذي نشأ عنده: اغسلي رأسي يا أخية، وهو لا يشكُّ في أنها أخته، ولكنها لطمته، ولما سأل عن الأمر أخبروه بالخبر، فتركهم إلى بني فَهْم، وعندها حلف أن يقتل من بني سلامان مئة رجل، فكان يُغير عليهم وقد بلغ عدد القتلى منهم تسعة وتسعين رجلا، فترصَّدوا له وقتلوه، ثم بعد ذلك رفس أحدهم جمجمته فمات بسببها. (الأصفهاني، ١٤٢٢هـ، ٢١/ ١٨٥- ١٩٩)، ويصنِّفه صاحب اللسان ضمن "أغربة العرب" (ابن منظور، ١٤١٠هـ، مادة غرب، ١/ ٦٤٦).

المبحث الأول:

الملامح الخُلُقية للصعاليك في لامية العرب

يتصف مجتمع الصعاليك بالعديد من الملامح الخُلُقية التي تتجلَّى في حياتهم الخاصة المتمثِّلة في حياة الصحراء في قسوتها وما تمنحه من طبائع وخصال لأهلها، وتتمثل بعضها في لامية العرب للشنفرى، وهو أحد الأعلام المشهورين في مجتمع الصعاليك الذين عاشوا في العصر الجاهلي، وبرزت في هذه اللامية العديد من الأخلاق الفاضلة، والقيم النبيلة التي يفخر بها أيُّ إنسان، فهي تعلي شأنه، وترفع مكانته، وتعطي ملامح عن حياته الخاصة، وأهم هذه الملامح ما يأتي:

أولا: الغربة والعزلة والتفرُّد:

يعيش الصعلوك حياته الخاصة منعزلًا في الصحراء، إذْ إنه خرج من مجتمعه لظروفٍ ألمَّتْ به، فبقي وحيدًا في تلك البراري ليس فيها ما يؤانسه ويجالسه غير السيف أو الرمح أو الذئب، وما شابهها من وحوش ضارية، وحيوانات فاتكة، أو أسلحة يسلِّي نفسه بها، فهو بذلك يفضِّل العيش في هذا المجتمع الجديد الذي ألفه وآنس به على

مجتمعه الأول؛ لسمات معينة وجدها بين أهله الجدد تناسب وضعه، ويأنس بها، ويرى فيها الجانب النفسي والاجتماعي الذي يرتاح للعيش فيه.

ويبيِّن الشنفرى الغربة التي عاشها، والعزلة التي أصابته بعد أنْ رحل عن قومه، فهو مَنْ خرج عنهم بإرادته وعزّته وشموخ أنفه، وليس على عادة أغلب الصعاليك الذين تخلعهم قبائلهم، وتتبرأ منهم؛ لعيبٍ لحق بهم، أو لعارٍ اقترفوه، وتحدَّث الشاعر عن ذلك في كثيرٍ من أبيات لاميته، يقول: (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ١١):

أقيموا بَني أُمِّي صُدورَ مَطِيِّكُم
فَإِنِّي إِلى قَومٍ سِواكُم لأَمْيَلُ

يمثِّل هذا البيت مطلع القصيدة، وفاتحة لها، وهو عنوان كبير، وبوابة واسعة للدخول في عالمها (لامية العرب "نشيد الصحراء، ٥٨)، ويبين فيه الشاعر سياسته في الحياة، وما يخطِّط له في الأيام القادمة، فهو يدعو قومه بصيغة الأمر (أقيموا)؛ بغية الاستعداد لقتال العدو، والتأهب لذلك اللقاء، والأخذ بنصيحته، فهو العليم بأسرارها، الفطن لخفاياها، أما هو فإنه قد اتخذ قراره بالبراءة من قومه واعتزالهم، مؤكِّدًا ذلك بالمجيء بـ"أنَّ" المضافة إلى ياء المتكلم (أبو حمدة، ١٤٠٢هـ، ص١٣)، وهو بهذه السياسة يأتي بصيغة أسلوب التفضيل (أميل)؛ لإحاطة قومه بأنَّ مجتمعه الجديد أفضل منهم، وقد فضَّل اختيارهم والتوجُّه إليهم. وهذا الخروج الذي تحدَّث عنه، وعلى ضوئه تمَّ اختيار مجتمع جديد بديلا عن مجتمعه الأول لم يأت جزافًا، أو دون تأمل وتفكير، وإنما له سبب رئيس دعاه إلى اتخاذ ذلك القرار، وقد بيَّنه في الأبيات التي تلت البيت السابق، فقال (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ١٥- ١٦):

وفِي الأرضِ مَنْأَى لِلكريمِ عنِ الأَذَى
وَفِيْها لِمَنْ خَافَ القِلى مُتَعَزَّلُ

لَعمرُكَ مَا فِي الأرضِ ضِيقٌ عَلَى امْرِئٍ
سَرَى رَاغِبًا أَوْ رَاهِبًا وَهْوَ يَعْقِلُ

ففي تقديم الجار والمجرور في البيتين (في الأرض) دليل على أنَّ التحوَّل عن مكان إقامته، والابتعاد عن أرضه الأم لهو في الشأن الذي يرومه الشاعر ويريد توكيده، كما أنَّ قوله "امرؤ" إسقاط آخر يريد به نفسه (أبو حمدة، ١٤٠٢هـ، ص١٩)، كما أنَّ في ذلك إشارة إلى سعة المعمورة وأن الإنسان ليس محكومًا للعيش في بيئة غير مريحة له، أو في مجتمع لا يهنأ له فيه باله، ولا يطيب له فيه عيش أو مرقد، فقد جُبلت النفس البشرية على الحركة والتنقل وعدم الاستقرار؛ بحثًا عن مأمنٍ معيشي، ونفسي، واجتماعي.

وفي البيتين بعض السمات الإيجابية للصعلوك الذي يرغب بالخروج عن قومه، ويتبرَّأ منهم بأسرهم "ولا يستطيع ذلك إلا مَنْ كان على درجة عالية من الثقة بالنفس، والصبر على تأوُّلات الناس وإشاعاتهم"(أبو حمدة، ١٤٠٢هـ، ص١٩)، فكأنه يتمثَّل بالصفات العالية، وهي: الكرم، والابتعاد عن الأذى، وتجنّب البغض والكراهية من الآخرين، وفي البيت حكمة اتسمت بسهولة لفظها، ووضوح معناها، وهي: أنَّ الكريم يبتعد عن أذى الناس وذلِّهم إلى مكان بعيد، فاعتزالهم أفضل من تحمِّل أذيتهم، وواضح تأثير حياة التشرُّد والفقر وطبيعة حياة الصعلكة القائمة على التنقُّل وعدم الاستقرار، وأثر ذلك في صياغة حكمته التي جاءت نتيجة خلاصة تجربته الإنسانية في هذه الحياة. (إسماعيل، ٢٠١٤م، ٦٢)، وهذا معنى طرقه شعراء آخرون، يقول معن بن أوس المزني (المزني، ١٩٧٧م، ٩٤):

وفي النَّاسِ إنْ رثَّتْ حبالكَ واصلٌ
وفي الأرضِ عن دارِ القِلى متحوّلُ

فالشاعر الأبيُّ يرى أنَّ الأرض لا تضيق به ذرعًا، وإنما يتنقل فيها حيث شاء، وقد أكَّد هذا المعنى عمرو بن الأهتم بقوله (الأهتم، ١٤٠٤هـ، ٩٥):

لعمركَ ما ضاقتْ بلادٌ بأهلها
ولكنَّ أخلاقَ الرجالِ تضيقُ

أما أصحابه الجدد الذين سيتخذهم جلساء في مجتمعه الجديد بعد عزلته وتغرُّبه عن مجتمعه الأم، فقد أوضحهم في قوله (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ١٧):

ولِيْ دُوْنَكمْ أَهْلونَ: سِيدٌ عَملَّسٌ
وأَرْقَطُ زُهْلولٌ وعَرْفاءُ جَيْأَلُ

يتضح المجتمع الجديد الذي فضَّله الشاعر على مجتمع قبيلته، وهو خليط من الحيوانات المفترسة الموحشة، وخاصة الذئب السريع، والنمر الأرقط، والضبع الطويلة العرف، وهو بذلك لا يريد حقيقة المجالسة والمؤانسة بها، ولكنه يرمز إلى مجتمع قويٍّ يصبو إليه، ويهدف إلى أن يكون مجتمعه كذلك حتى وإن اتخذ البيد سكنًا له.

أما عن سبب تفضيله للعيش منعزلًا متفرِّدًا في هذا المجتمع الموحش الغريب مع جنس ليس من جنسه، فقد أبان عنه في قوله (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ١٨):

هُمُ الأهلُ لا مستودعُ السرِّ ذائعٌ
لديهمْ ولا الجَانِي بِمَا جَرَّ يَخْذلُ

فهذا المجتمع الجديد له خصائص لا توجد في مجتمعه القديم، فأهله يكتمون الأسرار، ويحفظونها عن الانتشار، ولا يذيعونها للآخرين، ولا يعاقبون الجاني فيخذلونه، وقد اعتمد على أسلوب النفي، ليظهر نجاح اختياره لهذا المجتمع الجديد الذي نفى عنه جملة من السلبيات التي طغت على مجتمعه القديم، وكانت سببًا من أسباب تركه لهم.

ومن الأسباب التي دعته للغربة والعزلة تلك الجنايات التي اقترفها من غاراته في الصعلكة، فأصبح بسببها طريدًا مبعدًا في الصحراء، يخشى على نفسه ممن أغار عليهم، فهم يتنافسون للقبض عليه، والانتقام منه، يقول: (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ٥٥):

طَرِيدُ جِنَايَاتٍ تَيَاسَرْنَ لَحْمَهُ
عَقِيرَتُهُ لِأَيِّها حُمَّ أَوَّلُ

فهو بهذه الأعمال التي قام بها ينبغي أن يكون "في يقظةٍ دائمة، وحذرٍ شديد، فله أعداء كثيرون يتربَّصون به لجنايات جناها، وهم يتعقبونه بنظراتهم؛ بغية الظفر به والقضاء عليه" (نور الدين، ١٤٢٨هـ، ٢٣٠).

ويظهر أنَّ الشنفرى لم يكترث بالاغتراب عن مجتمعه؛ بل جعله سمة حسنة، وقرارًا ناجعًا؛ فبيَّن أن الاغتراب عن الأهل، وقطع المفاوز في طلب الصيد سبب للغنى، ولا يدركه مَنْ قرَّ في مجتمعه، وركن إلى بيته، وجلس بين أهله، يقول: (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ٥٨):

وأُعدِمُ أحيانًا وأَغْنَى وإنَّما
يَنَالُ الغِنَى ذو البُعْدَةِ المتبذِّلُ

فقصر الغنى في الابتعاد (البُعْدة)، وهو غنى النفس، والقناعة فيما لديه، وليس في الذلِّ والمهانة، والركون، والدعة.

وفي اغترابه وعزلته وحدةٌ وانفرادٌ عن مجتمعه السابق، ويصور حالته في الصحراء التي تشبه الترس وهو يقطعها على قدميه وحيدًا منفردًا، يقول (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ٦٧):

وخَرْقٍ كظَهرِ التُّرسِ قَفْرٍ قطَعْتُهُ
بِعامِلَتينِ، ظَهْرهُ ليسَ يُعْمَلُ

اعتمد الشاعر في تصوير غربته وحيدًا على التشبيه، فقد قطع هذه الصحراء الواسعة المقفرة التي تشبه ظهر الترس بانبساطها واستوائها على قدميه، مما يحكي قوة بأسه، وتجلُّده في التغلب على الصعاب، وعدم خوفه من البيد الموحشة المليئة بالوحوش المفترسة التي ألفته، وتعوَّدت على العيش معه؛ بل إنَّ الوعول آلفته ولم تعد تهرب عندما تراه؛ لأنه "أصبح جزءًا من بيئة الوحوش، وإن كان أخطر وحوشها" (الشنفرى، ١٤١١هـ، إحالة رقم ٦٩، ص٧٣):، يقول (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ٦٨- ٦٩):

تَرُودُ الأَرَاوِي الصُّحْمُ حَوْلي كأنَّها
عــذَارَى عليــهنَّ المُــلاءُ المُذَيَّــلُ

ويرْكُدْنَ بالآصالِ حَوْلِي كأَنَّني
مِنَ العُصْمِ أدْفَى يَنْتَحِي الكِيحَ أعْقَلُ

هذه حياة الشنفرى الجديدة التي اختارها لنفسه، ليكون وحيدًا غريبًا بين أناس ليسوا من جنسه، ولكنه فضلهم على بني جلدته؛ حفاظًا على كرامته، وبحثًا عن مأمن نفسي واجتماعي له!

ثانيا: الشجاعة:

اتصف الرجل العربي بالشجاعة منذ القدم، وتغنَّى فيها كثير من شعراء العصر الجاهلي، وكان للصعاليك فيها جولات وصولات، أظهروا فيها شجاعتهم، وقوة بأسهم، بين كرٍّ وفرٍّ، يغزون في أماكن متفرقة، ويلجؤون إلى مغاراتهم في جبال وعرة، وصحراء قاحلة، وشعاب متعرجة، آخذين غنيمتهم مما يسدُّ رمق جوعهم وحاجتهم اليومية من أهل الغنى والمال الوفير.

وتحدث الشنفرى عن شجاعته، وقوة بأسه، وإقدامه في أبيات متفرقة في لاميته، فقد عاش في الصحراء وحيدًا، سلاحه الشجاعة، ورباطه القوة، وعدَّته نفسه الأبية، يقول في لاميته (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ١٩):

وكُلٌّ أبِيٌّ باسِلٌ غيرَ أنَّني
إذا عرضَتْ أُولَى الطَّرائِدِ أَبْسَلُ

فهذه الوحوش التي يعيش بينها في الصحراء على بسالتها وقوتها واشتراك الجميع بهذه الصفة بدليل قوله "وكلٌّ" التي تفيد العموم، إلا أنه أكثر شجاعة منها وأقوى! وهذا من المبالغة في الاعتداد بقوته، ولكنها رسالة للآخرين سواء لأفراد مجتمعه الذين رحل عنهم واستبدلهم بقوم آخرين، أم إلى أعدائه الذين يتربصون به الدوائر، ويتمنون إمساكه والفتك به.

ويصوِّر شجاعته بالرفقة التي انتقاها في صحبته، وهم: القلب الشجاع، والسيف المصلت، والقوس الصفراء الطويلة القوية، يقول: (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ٢٢- ٢٥):

وإنِّي كَفَانِي فَقْدَ مَنْ ليسَ جازيًا
بِحُسْنَى ولا في قُرْبِهِ متعلَّلُ

ثلاثةُ أصحابٍ : فُؤَادٌ مُشَيَّعٌ
وأبيضُ إِصْليتٌ وصَفْراءُ عَيْطَلُ

هَتُوفٌ مِنَ المُلْسِ المُتُونِ تَزِينُها
رَصَائِعُ قَدْ نِيْطَتْ إِليها وَمِحْمَلُ

إِذَا زَلَّ عَنْهَا السَّهمُ حَنَّتْ كَأَنَّهَا
مُرَزَّأَةٌ عَجْلَى تُرِنُّ وتُعْوِلُ

استخدم الشاعر أسلوب التوكيد في إثبات شجاعته وانتقائه لأصحابه الثلاثة بقوله: (وإني)؛ لإثبات هذه الصفة أمام أعدائه، أو قومه الذين تركهم واستبدلهم بهذه الصحبة الجديدة، وفي ذلك بيان لوجاهة القرار الذي اتخذه بحقِّهم عندما تركهم ومال إلى قوم آخرين باختيار صحبة

الحيوانات الضارية الكالحة الوجوه، فهو ليس بالمبغض أهله، ولا المنحرف عنهم بسوءٍ وعارٍ في خلقه فيخلعوه، وليس وحشًا سينضم إلى غابة الوحوش، وإنما هو يلفت في هذه الأبيات إلى ما يميزه عن قومه، وأسباب هذا التميز: أنهم لا يردون الجميل لصاحبه، ولا يجد في جوارهم أنسًا وراحة، فذكر الأشياء الثلاثة؛ عوضًا عن الحيوانات المفترسة التي ذكرها سابقًا (النمر/ الذئب/ الضبع)؛ لأن الجوار مهما كان غير مؤنس، فكأنه يستشعر الوحشة في بيئة الغاب، ويشتاق إلى المجتمع البشري، ويستوحش لفقدهم، وما يصبِّر نفسه على تحمُّل فراقهم، والعيش في هذا المجتمع الجديد إلَّا هذه الأشياء الثلاثة، فهو يعيش تحدِّيًا نفسيًّا ما بين حبِّه للأهل والوفاء للذِّمم وبين إرادة التحوُّل عنهم إلى آخرين، وما سيسببه هذا التحوُّل من تحدٍّ جديدٍ مع نفسه ومع أفراد قومه الجدد، فتتعاظم بذلك شخصية الشاعر، فيضع نفسه بطلًا يتخطَّى جميع الحواجز الماثلة أمامه، بما في ذلك قيود الغابة التي فرض نفسه للعيش فيها بين وحوش الصحراء على ما في كيانه من تنازع بين حبِّ الإنسان وهو الأمر الطبيعي عند البشر، وبين حبِّ الأهل الجدد بدليل الإتيان بكلمتي: "الرصائع/ المحمل"، وهما زينتان خارجيتان للقوس وليسا من تركيبته الداخلية، فهما أقرب إلى السمات البشرية منها في دنيا الحيوانات المفترسة (أبو حمدة، ١٤٠٢هـ، ٢٨- ٣٢)، ويعدُّ الشنفرى من أكثر الشعراء الصعاليك افتتانًا بالصوت المنبعث من القوس والسهام، وبالحديث عن لونها وصوتها أثناء الرمي. (نور الدين، ١٤٢٨هـ، ٢٠١)، وهما وسيلتان لا يستغني عنهما الصعلوك في هجماته على أعدائه وخاصة أثناء الترصُّد لهم، وهي من الأسلحة البعيدة المدى التي تحقِّق أهدافه، وتأتي نتائجها وفق مراده. (حفني، ١٩٨٧م، ٢٢٢- ٢٢٦).

وكما أثبت الشاعر لنفسه صفة الشجاعة، فقد نفى عنها ضدَّها، كصفة: الجبن، والخوف، يقول: (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ٢٧- ٢٨):

ولا جُبَّأٌ أكْهَى مُربٌّ بعرسهِ
يُطالِعُها في شَأْنِهِ كيفَ يفْعَلُ

ولا خَرِقٍ هَيْقٍ كـأنَّ فؤادَهُ
يظلُّ به المُكَّاءُ يَعْلو ويَسْفُلُ

اعتمد الشاعر على أسلوب النفي في إثبات قوته وشجاعته، فنفى عن نفسه الجبن (ولا جبَّأ)، وكذلك الخوف (ولا خرق)، كما نفى عنها سوء الخلق (أكهى)، وكذلك الكسل (مرب بعرسه)، فهذه جملة من الصفات السيئة التي نفاها عن نفسه، ليثبت ضدَّها، وهي تدور حول حقل: (الشجاعة، والقوة، والاعتداد بالنفس).

وفي موضع آخر من اللامية، يتغنَّى الشنفرى بشجاعته، ويبيِّن أنَّ أمَّ قسطل (الحرب) تحزن لمفارقته إياها، ولكنه يعود ويتساءل قائلا: لمَ الحزن وقد فرحتْ به طويلا، وأسعدها من قبل في صولاته وجولاته؟! يقول في لاميته: (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ٥٤):

فَإِنْ تَبْتَئِسْ بِالشَّنْفَرَى أُمُّ قَسْطَلٍ
لَمَا اغْتَبَطَتْ بِالشَّنْفَرَى قَبْلُ أَطْوَلُ

فهو يصوِّر حزن أم قسطل (الحرب) على فراقها له، ويَظْهر جمال تصوير الشاعر باستخدامه الأسلوب الكنائي في قوله (أم قسطل)، فالقسطل هو الغبار، ولأنَّ المعركة تثيره فقد جعلها أمًّا له، فانطلق بصورته من ذلك، ويظهر في هذا البيت "استشعار الشاعر خلو دوره من على مسرح الحياة، وكأنه ينعى إلى نفسه نفسه. إنَّ نقطة الضعف بالموت تتراءى أمام ناظريه في هذه المقابلة ما بين

حال الحرب وهي تندب غياب أبي فوارسها عنها وبين حال الحرب والشنفرى يصول ويجول" (أبو حمدة، ١٤٠٢هـ، ٦٣).

كما يبيِّن مدى الشجاعة التي توصَّل إليها، وذلك عندما صوَّر نفسه في تلك الليلة الباردة التي اصطلى فيها صاحب القوس بقوسه من شدَّة البرد، والشنفرى يطأ على الأرض المظلمة التي هطلت عليها الأمطار - حينئذٍ - وأصحابه الذين معه أصابهم الجوع والبرد والخوف والرعدة، وكلما اشتدت الظروف عليه كان أدعى لإبراز بطولته، وتجاوزه العقبات والصعاب، فيهجم على أعدائه فيقتلهم، وتصبح نساءهم أيامى، وأولادهم يتامى، ثم يعود في نفس الليلة المظلمة كما بدأ في مجيئه، وهذا دليل على سرعته وقدرته على تحقيق انتصاراته بأقل جهد وأسرع وقت، يصوِّر شجاعته قائلا: (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ٥٩- ٦١):

ولَيلةِ نحسٍ يَصْطَلي القوسَ ربُّها
وأقطُعَهُ اللاتي بها يتنبَّلُ

دعسْتُ على غَطْشٍ وبَغْشٍ وصُحْبتِي
سُعَارٌ وإرْزِيزٌ ووَجْرٌ وأفْكُلُ

فأيَّمْتُ نِسْوانًا وأيتمْتُ إلْدَةً
وعُدْتُ كما أبْدأْتُ والليلُ أليلُ

في الأبيات السابقة نرى أنَّ الشاعر نجح في دلالات الألفاظ التي اختارها، واعتماده على أسلوب التقديم والتأخير، والتنكير والتعريف في رسم الصورة التي يريد إبرازها وتعميقها في ذهن المتلقي، وجودة الموسيقى الداخلية التي أضفاها تكرار حرفي السين والصاد، وما يوحيه صفيرهما عند التلفظ بهما ليشعران بحركة الريح الشديدة وصفيرها أثناء غارته في هذه الليلة. (أبو حمدة، ١٤٠٢هـ، ص٧٢).

ثالثا: الصبر وقوة التحمُّل:

يتَّصف الصعلوك بالجلد والصبر وقوة التحمُّل؛ لأنه اختار لنفسه حياة التشرد والتنقُّل، فهو في حاجة إلى أن يعوِّد نفسه على شظف الحياة، وتقلبات المناخ، والصبر على الجوع، والتشرُّد في مفازات الصحراء (نور الدين، ١٤٢٨هـ، ٢٢١).

وقد اتَّسم الشنفرى بقوة الصبر، والقدرة على تحمِّل المشاق في هذه الحياة، وقلّة الشكوى عند حدوث المصائب له، يصوِّر قدرته على تحمُّل العطش الذي يصيبه أثناء دخوله بسوامه إلى المرعى البعيد لتنال منه، فيقول: (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ٢٦):

ولَسْتُ بِمِهْيافٍ يُعَشِّي سَوَامَهُ
مُجَدَّعَةً سُقْبَانُها وَهْيَ بُهَّلُ

ويمتدح الشنفرى قوَّة تحمله، ومدى صبره على الجوع الطويل حتى ينتفي عنه هذا الجوع، إمَّا بإماتته بالإطالة، وإمَّا بنسيانه بالإعراض عنه، يقول في لاميته (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ٣٢):

أُدِيمُ مِطَالَ الجوعِ حتَّى أُمِيتَهُ
وأضْرِبُ عنْهُ الذِّكْرَ صَفْحًا فأَذْهَلُ

فالشاعر في هذا البيت "يرسم صورة رائعة لذلك الجوع النبيل الذي يشعر به الصعلوك، ولكنَّ نفسه الأبية تأبى عليه أن يهينها من أجله فلا يجد أمامه سوى الصبر والقناعة" (خليف، ١٩٧٨م، ٣١)، وخاصة أنه استخدم الفعل المضارع (أديم) الدال على الاستمرار؛ ليثبت رباطة جأشه، وقوة تحمله، واستمراره في ترويض الجوع حتى يفنيه، ويصبح ضمن عداد المنتهين الذين لا وجود لهم؛ كناية عن قوة البأس الذي يمتلكه، ويتحلَّى به.

ويأتي الشاعر بتحدٍّ جديد، فمع تحمُّله للعطش الوارد سابقًا في قوله: "ولست بمهياف"، يصوِّر في

هـذا البيـت شـدَّة الجـوع الـذي يصيبـه لكنـه يظهـر جَلَـده، وقمَّـة تحملـه، فهـو السـبيل لمقاومتـه، ويصـل الأمـر بـه إلى أنـه يربـط بطنـه حتـى تخـفَّ حـدَّة الجوع، وقـد كان صـلى الله عليـه وسـلم يفعـل ذلـك، وأحيانًـا يربطهـا بالحجـارة، يقـول الشـنفرى (الزمخـشري، ١٣٩٩هـ، ٣٦):

وأَطْوي على الخَمْصِ الحَوَايا كما انْطَوَتْ
خُيُوطةُ ماريٍّ تُغَارُ وتُفْتَلُ

جـاء الشـاعر بالتشـبيه في بيـان قـوة صـبره وجلـده، فيشـبه نفسـه بالحيـة، وذلـك في الـبروز والظهـور للحرِّ والقـرِّ دون أن يلبـس حـذاء، مبينًـا أنـه مـولى الصـبر القائـم بـه، والمسـتولي عليـه، فكأنـه ألبسـه قلبـه في صـورة فنيـة رائعـة، وذلـك في قولـه: (الزمخـشري، ١٣٩٩هـ، ٥٧):

فإمَّا تَرَيْني كَابْنَةِ الرَّمْلِ ضَاحِيًا
عَـلَى رِقَّـةٍ أَحْـفَى وَلَا أَتَنَعَّـلُ

فـإِنِّي لَـولَى الصَّبْرِ أَجْتَـابُ بَزَّهُ
عَلَى مِثْلِ قَلْبِ السِّمعِ والحَزْمُ أَنْعَلُ

وهـو بذلـك يسـتحضر صـورة مجتمعـه الـذي تركـه، ويوجِّـه خطابـه لابنـة عمـه ويخبرهـا بأنـه لا زال قويًّـا صابـرًا، فهـو في موقـف قـوَّة وعـزَّة، وليـس في موقـف ضعـف وإشـفاق، وبذلـك يظهـر تأزُّمـه النفـسي وحـواره الباطنـي القائـم عـلى مقارنـة مـا بـين حالتـه الجديـدة، وغربتـه النفسـية في الصحـراء بـين وحـوش ضاريـة مفترسـة، وأيامـه الفائتـة مـع مجتمعـه السـابق بمعايـيره وقواعـده الخلقيـة. (أبـو حمـدة، ١٤٠٢هـ، ٦٨). وينفـي صفـة الجـزع عنـه عندمـا يصيبـه الفقـر، فهـو لا يهمُّـه غنـى أو فقـر، فنفسـه عزيـزة أبيـة، تُعنـى بالأمـور الكبـيرة، ولا يشـتكي ولا يتـألَّمإن أصابـه عوزٌ أو حاجـة، فهـو تعـوَّد عـلى الجلـد والصـبر والقـوة، يقـول في اللاميـة (الزمخـشري، ١٣٩٩هـ، ٥٨):

فَلَا جَزِعٌ مِنْ خَلَّةٍ مُتكشِّفٌ
ولا مَرِحٌ تَحْتَ الغِنَى أَتَخَيَّلُ

ويبـيِّن جلـده وقـوَّة تحمُّلـه أثنـاء تصويـره لنفسـه، وهـو سـائر في أحـد الأيـام التـي اتسـمت بشـدَّة الحـر والتـي أسـالت لعابـه مـن شـدَّة العطـش، وتقلَّبـت فيـه الأفاعـي في الأرض مـن شـدَّة الحـر، وقـد أقـام وجهـه لذلـك، ولم يكـن هنـاك سـاتر يقيـه مـن هـذه الشـمس الملتهبـة إلَّا ثوبـه الممـزَّق مـن الـبرد، فـإذا هبَّـت الريـح طـيَّرت شـعر رأسـه المتلبِّـد المتَّسـخ الـذي لم يغسـل ولم يسـرَّح ولم يدهـن، يصـور ذلـك الموقـف قائـلا: (الزمخـشري، ١٣٩٩هـ، ٦٥- ٦٦):

وَيَـوْمٍ مِنَ الشَّـعْرَى يَذُوبُ لُعابُهُ
أَفاعِيهِ فِيْ رَمْضِـائِهِ تَتَمَلْمَـلُ

نَصَبْتُ لَـهُ وَجْـهي وَلَا كِنَّ دُونَهُ
وَلَا سِتْرَ إِلَّا الأَتْحَمِيُّ المُرَعْبَلُ

وَضَافٍ إذا هبَّتْ لهُ الرِّيحُ طيَّرَتْ
لبـائِدَ عنْ أعطـافِهِ مـا تُرجَّلُ

فهـو عـلى أيـة حـالٍ شـاعر فطـري، لا يتراجـع أمـام الصـور الحقيقيـة، فهـو يصـف شَـعره وأوسـاخه وهيئتـه الرثـة كـما جـاءت في أبياتـه، معتـبرًا ذلـك سـمة واقعيـة لحالـه التـي يفخـر بهـا، ويصـوِّر جلـده وصـبره في الصحـراء القاحلـة بصورتـه البدويـة القاطنـة في الصحـراء.

ويدعـو الشـنفرى إلى الصـبر، فهـو منهـج في حياتـه قائـلا: (الزمخـشري، ١٣٩٩هـ، ٥٠):

شَكَا وشَكَتْ ثُمَّ ارْعَوَى بَعْدُ وارْعَوَتْ
وَلَلصَّبرُ إنْ لَمْ يَنْفَعِ الشَّكوُ أَجْمَلُ

جـاءت الحكمـة في الشـطر الثـاني، وهـي الدعـوة إلى الصـبر إنْ لم تنفـع الشـكوى.

هـذه سـمة الصـبر تتجـلَّى في عـدَّة صـور عنـد

الصعلوك الشنفرى من خلال ما تقدَّم من أبيات، سواء أكان صبرًا على الجوع والفقر، أو بسبب حرارة الشمس الملتهبة، أو بسبب المتاعب التي يتعرَّض لها وهو سائر في الصحراء.

رابعا: عزَّة النفس:

اتَّصف الرجل العربيُّ الأبيُّ بعزة النفس، وابتعاده عن الذلِّ والهوان، ويتمثَّل الشنفرى في لاميته بهذه الخصلة، ويفضِّلها على العيشة الدنيئة التي يلحقها ذلٌّ وهوان من الآخرين، يقول (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ١٥):

وَفِيْ الأَرْضِ مَنْأَى لِلكريمِ عَنِ الأَذَى
وَفِيْهَا لِمَنْ خَافَ القِلَى مُتَعَزَّلُ

يتكئ الشاعر في بيته على حكمة، وهي أنَّ الإنسان الكريم يجتنب الأذى ويبتعد عنه؛ طمعًا في النجاة، وحفظًا لكرامته، وما تتمتَّع به نفسه من عزَّة وإباء، ولن تضيق به المعمورة، فهي رحبة واسعة تتيح للحرِّ الأبي أن ينتقل بين أرجائها، كما أنَّ العزلة لمن خاف الحقد والبغض وخاصة من أقربائه خير له من الهوان والذل والعيش بينهم، ولعلَّ في تقديم الجار والمجرور "في الأرض" إشارة إلى سعي الشاعر وتنقله بين أمكنة مختلفة، وعدم قراره في مكان واحد، وهو يرى أنَّ كريم النفس يجد من التقلُّب في الأرض، والسعي فيها ما يُبْعده عن احتمال الضيم أو لحاق الأذى به، وأنَّ مَنْ خاف بُغْض الناس الذين من حوله فله أن يعتزلهم ويبتعد عنهم، ولا يخفى أنَّ التحدُّث عن كريم النفس هنا هو بمثابة الحديث عن الذات، فالشاعر يقصد نفسه، وهو أداة فنية رائعة في تطوير النص، وتنميته من الداخل (أبو حمدة، ١٤٠٢هـ، ١٧)، ويعلّل فعله ذلك بقوله (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ١٦):

لَعَمْرُكَ مَا فِي الأرضِ ضِيقٌ على امْرِئٍ
سَرَى رَاغِبًا أَوْ رَاهبًا وَهُوَ يعْقِلُ

وهو معنى يتوافق مع قول المتلمس (المتلمس، ١٣٩٠هـ، ٢٠٨- ٢١١):

ولنْ يقيمَ عَلَى خسْفٍ يُسَامُ بِهِ
إلَّا الأذلَّانِ: عيرُ الأهلِ والوتَدُ

هَذَا عَلَى الخَسْفِ مربوطٌ برمَّتِهِ
وذا يُشَجُّ فَمَا يرْثِي لهُ أحدُ

فالإنسان له كرامته في الأصل، ومكانته في الأرض، فهو مستخلف فيها، ولكن إذا جاء من ينكِّد عليه حياته، ويتسبب له في مشكلات اجتماعية، ونفسية، واقتصادية فعليه أن يختار أرضًا أخرى يعيش فيها بكل أمن وطمأنينة وسكون وراحة، ولن تضيق به تلك الأرض مهما كانت أموره؛ بل ستضفي عليه حياة خاصة يعيش فيها بكرامته الإنسانية التي منحها له إله الكون بعيدًا عن التصرفات البشرية.

وتصل عزَّة نفسه إلى أنه لا يرتجي أحدًا في حياته، ولو وصل به الأمر إلى أن يستفَّ الترب للخروج من الذل والهوان الذي يريد مجتمعه أن يفرضه عليه، (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ٣٣):

وأَستَفُّ تُرْبَ الأرضِ كَيْلَا يَرَى لَهُ
عَلَيَّ مِنَ الطَّولِ امرؤٌ مُتَطَوِّلُ

جاء الشاعر في بيته بالفعل المضارع (أستفُّ)؛ ليبين عن حالته المستمرة، وطبعه في الحياة التي لا يغيرها مهما كلَّفه الأمر، فهو مستمرٌ بأنفته وشموخه، وعزَّته وكرامته، لا يريد أنْ يمنَّ عليه أحدٌ بتقديم طعام له، ولو وصل به الجوع إلى أن يستفَّ التراب! "وإذا كان الجوع أقسى ما يصبُّه الفقر من سياطٍ على جسد الفقير فإنَّ هناك سياطًا أخرى لا تقلُّ قسوة عن سياط الجوع،

ولكنها سياط نفسية يصبها الفقر على نفس الفقير" (خليف ١٩٧٨م، ٣١)، فهناك من يترقَّب له، ويتمنى أن يذلَّ الشاعر نفسه ويتقرَّب إليهم؛ كي يحتقروا إنسانيته وكرامته وأنفته، ويهبطوا بمكانته إلى ما دون الإنسانية، ولكن هيهات لهم! فهو رجل عصامي صبور، مستعدٌ لأن يلتهم تراب الأرض ولا أن يمدَّ يده لإنسان حقير يذلّه، ويمنن عليه. (الصياصنة، ١٤١٥هـ، ٩٩).

أما عن السبب الرئيس الذي دعاه لهذه العزَّة والأنفة، والشموخ والكبرياء فهو عدم قبوله للذلِّ والعيب والعار، يقول: (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ٣٦):

ولكِنَّ نَفْسًا مُرَّةً لا تُقِيمُ بِيْ
عَلَى الذَّأمِ إلَّا رَيْثَمَا أَتَحَوَّلُ

وفي وصف النفس بالمرة إيحاء، وهو أنها "أصلب عودًا من أنْ تطيق الصبر على الذأم، أو أن تسكت على باطل" (أبو حمدة، ١٤٠٢هـ، ٤٤)، وهذه جبلّة الإنسان السويّ، ففطرته مجبولة على مكانة تليق بإنسانيته، ولا يخرج عنها إلى ما دونها إلا إنسان هزيل ارتضى المهانة لنفسه، وجلب لها التعاسة والاحتقار.

ولو كانت نفسه تقبل ذلك لحصل على ما يريد من مأكل ومشرب بأيِّ وسيلة يقدر عليها بطرقٍ مشروعة أو غير مشروعة، لكنَّ أخلاقه تأبى العار والشنار! (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ٣٤):

ولولا اجْتنابُ الذَّأمِ لم يُلفَ مَشْربٌ
يُعَاشُ بهِ إلَّا لديَّ ومأْكَلُ

هذه عزة النفس للإنسان الجاهلي الصعلوك تتجلى في قمة شموخها، وعظمتها، وهي رسالة من مئات السنين بأنَّ للإنسان مهما كان وضعه في المجتمع فإن له منزلة خاصة، ومكانة يستحقها بين أفراد مجتمعه، ينبغي على الآخرين تقديرها واحترامها، والابتعاد عمَّا يحطُّ من كرامته، ويقلِّل من شأنه.

خامسا: العِفَّة:

يفخر الشاعر العربيُّ بهذه الصفة منذ القدم، ويتعفَّف عما قد يلحق به من نقائص، فيحرص على حفظ العِرض، سواء أكان لنفسه أم لجيرانه، فعنترة الذي عاش في العصر الجاهلي يقول (عنترة، ١٤١٧هـ، ٣٠٨):

وأغضُّ طَرْفِي مَا بَدَتْ لِيَ جارتِي
حتَّى يُوارِي جَارتِي مَأْواهَا

وكان للصعاليك نصيب كبير من هذه الخصلة الحميدة، فتميزوا برقيٍّ اجتماعي أصيل، وفاخروا بهذه القِيم في شعرهم، ووصفوا أنفسهم بالتحلي بها، معبِّرين عن مجتمع مثالي نبيل.

والشاعر الشنفرى يتمثَّل بالعفة والشرف في لاميته، وينفي عن نفسه مغازلة النساء، والتجمُّل أمامهن صباح مساء؛ لشرف همته، يقول: (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ٢٨):

ولا خَالفٍ داريَّةٍ مُتَغزِّلٍ
يَرُوحُ ويَغْدُو داهِنًا يَتكحَّلُ

كما أنَّ الشنفرى حريص على الوصول إلى قمة العفَّة والقناعة في أخلاقه، فليست العفة فيما يتعلَّق بشؤون المرأة وحسب، وإنما تأتي في أمور كثيرة، فها هو ينفي عن نفسه الجشع في الطعام، والسرعة في مدِّ اليد إليه، ومزاحمة الناس على الأكل ومسابقتهم عليه حتى وإن كان ينافسهم ويسبقهم في صيد الطرائد، ويجعل ذلك من باب التفضُّل عليهم، فيتحدث عن خلقه وأدبه في الطعام قائلا: (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ٢٠- ٢١):

وإنْ مُدَّتِ الأيدِي إلى الزَّادِ لَمْ أكُنْ
بِأعْجَلِهِمْ إذْ أجشَعُ القَومِ أَعْجلُ

ومَـا ذَاكَ إلَّا بَسْـطةٌ عَـنْ تَفَضّـلٍ
عَلَيـهِمْ وكَـانَ الأَفْضـلَ المُتَفضِّلُ

وجـاء الشـاعر بالاحـتراس في بيتـه الثـاني "ومـا ذاك إلَّا ..." حتـى لا يتوهَّـم المتلقـي أنَّ سـبب عـدم تقدُّمـه في الأكل واسـتعجاله فيـه ناتـج عـن خوفـه مـن المنافـس الآخـر مـن الوحـوش الضاريـة العابسـة الجبـين والمقطبـة الحواجـب، وإنـما ذلـك ناتـج عـن تفضُّـلٍ منـه عـلى أهلـه الجـدد، وكأنـه يضـع قانونًـا لهـم عندمـا أحاطهـم علـمًا بـأنَّ "الأفضـلَ المتفضـلُ"، متكئًـا في قانونـه عـلى جمـال اللغـة في تقديـم خـبر كان عـلى اسـمها. (أبـو حمـدة، ١٤٠٢هـ، ٢٧).

سادسا: الزهد:

الزهـد مـن الخصـال الحميـدة، وهـي صفـة ظاهـرة في مجتمـع الصعاليـك، وتنبـئ عـن طبيعـة حياتهـم الاجتماعيـة، وأحوالهـم المعيشـية المتواضعـة، فهـم لم يحترفـوا الصعلكـة بحثًـا عـن ثـراء، أو طمعًـا في مـال أو جـاه، وإنـما هـي حاجـة ألمـت بهـم، وحكمـتْ عليهـم قسـاوة أفـراد مجتمعاتهـم بسـلوك هـذا العمـل، واللجـوء إلى هـذه المهنـة التـي سـلكوها في حياتهـم، وأصبحـت مصـدر عيشـتهم.

ويبـيِّن الشـنفرى زهـده في الطعـام عندمـا يغـدو إلى القـوت الزهيـد بقوله: (الزمخـشري، ١٣٩٩هـ، ٣٧):

وأَغْدُو عَلَى القُوتِ الزَّهيدِ كَمَا غَدَا
أَزلُّ تَهَادَاهُ التَّنَائِفُ أَطْحَلُ

وصـف الشـاعر نفسـه بالزهـد معتمـدًا عـلى التشـبيه، فهـو يشـبّه نفسـه بذئـبٍ نحيـل الجسـم قـد أثقلـه الجـوع، وهـو يتنقـل بـين الصحـاري؛ بحثًـا عـن لقمـة العيـش التـي تقـوِّم صلبـه، وتسـاعده عـلى مواجهـة ظروفـه المعيشـية الصعبـة. (الشـنفرى، ١٤١١هـ، إحالـة رقـم٢٧، ص٦٤)، ولا زال الشـاعر مسـتمرًا في هـذه الطريقـة في حياتـه بتصويـر حالتـه المعيشـية عـن طريـق الفعـل المضـارع (وأغـدو)؛ ليبـين للقـارئ أنَّ هـذا مسـلكه في طلـب قوتـه اليومـي، ويكفيـه الزهيـد منـه دون طمـع أو تبذيـر فيـه.

سابعا: كثرة الهمِّ والغم:

وهـي سـمة لا تفـارق الصعاليـك؛ لأنَّ طبيعـة حياتهـم التفـرُّد والتنقُّـل في الـبراري وعـدم الاسـتقرار، فعيشـتهم في مجتمـع غـير مجتمعهـم الرئيـس، وإنـما هـم عائشـون مـا بـين طيـور، ووحـوش في صحـراء قاحلـة، ومـن المعـروف أنَّ أقـرب النفـوس إلى القلـق والهمـوم هـي النفـوس القويـة في تفكيرهـا وآمالهـا؛ لأنَّ هـذه القـوة تفتـح أمـام صاحبهـا أبوابًـا كثـيرة مـن الإدراك، وأبوابًـا كثـيرة مـن الآمـال والأهـداف، وأبوابًـا أخـرى مـن الإحسـاس بأشـياء قـد لا يحـسُّ بهـا أصحـاب النفـوس الضعيفـة. (حفنـي، ١٩٨٧م، ٢٩١)، يصـوِّر الشـنفرى كثـرة همومـه بقولـه: (الزمخـشري، ١٣٩٩هـ، ٥٦):

وإِلْفُ هُمُومٍ مَا تَزَالُ تَعُودُهُ
عِيَادًا كَحُمَّى الرِّبْعِ أو هِيَ أَثْقَلُ

إذا وَرَدَتْ أَصْدَرْتُها ثُمَّ إنَّها
تَثُوبُ فَتَـأتي مِنْ تُحَيْتُ ومِنْ عَلُ

يبـين أنَّ هـذه الهمـوم تأتيـه فيردّهـا ويفرجهـا عـن نفسـه، ويهونهـا عليـه، ولكنهـا ترجـع وتعـود أعظـم مـن الأول، فكأنـه بذلـك ألفهـا واعتـاد عليهـا، كاعتيـاده عـلى حمَّـى الربـع التـي تأتيـه يومًـا ثـم تتركـه وتعـود إليـه في اليـوم الرابـع (الزمخـشري، ١٣٩٩هـ، ٥٦)، ثـم يبـين أنَّ الهمـوم أشـدُّ منهـا، وأكثـر ضررًا عليـه مـن هـذه الحمـى المريـرة، فهـو وإن تحمَّلهـا ودفعهـا، فإنهـا تهاجمـه مـن كلِّ مـكان وجهـة! وجـاء بإيحـاءات أعطـت الصـورة جمـالًا، وذلـك في قولـه:

"إلـف" فهـي لفظـة توحـي بـأنَّ الشـاعر أصبـح أليفًـا للهمـوم ومعتـادًا عليهـا، وفي قولـه: "مـا تـزال" يوحـي باسـتمرار الهمـوم وتردُّدهـا عليـه، وقولـه: "إذا وردت أصدرتهـا" يـدلُّ عـلى شـدِّة الـصراع الحاصـل بينـه وبـين الهمـوم، وقولـه "مـن تحيـت ومـن عـل" يوحـي بـأنَّ الهمـوم أغرقتـه وجاءتـه مـن كلِّ فـوج؛ بـل إنَّ لفظـة "تحيـت" توحـي بالتصـاق الهمـوم والألم بجسـده فهـي لا تبارحـه ولا تنفكُّ عنـه، وقولـه "علُ" كأنَّ الهمـوم مظلَّـة لـه، تأتيـه مـن الفضـاء الواسـع فتنـزل عليـه، كـما أنَّ في التنكـير في قولـه: "همـوم" مـا يفيـد التعظيـم والتهويـل.(حفنـي، ١٩٨٧م، ٢٩٣).

ثامنا: التواضع وعدم التكبر:

التواضـع صفـة لأهـل النفـوس الكبـيرة، ومـا ارتفـع إنسـان في علمـه ومكانتـه الاجتماعيـة إلا زاد تواضعـه، وعـلا بـين قومـه، ونـال احترامهـم وتقديرهـم، والشـاعر الجاهـلي – الشـنفرى – يتمثَّـل بهـذه الصفـة رغـم صعلكتـه، وهـو ممـا يزيـد مـن مكانـة الرجـل، ويرفـع مـن قـدره واحترامـه عنـد الآخريـن وخاصـة طائفتـه ومجتمعـه الخـاص بـه، أمـا الكـبر فهـو صفـة ذميمـة ينـأى بهـا الكريـم عـن نفسـه، ويصبـح منبـوذًا عنـد الآخريـن، يقـول الشـنفرى في لاميتـه: (الزمخـشري، ١٣٩٩هـ، ٥٨):

فلا جَزِعٌ مِنْ خَلَّةٍ مُتَكَشِّفٌ
ولَا مَرِحٌ تَحْتَ الغِنَى أَتَخَيَّلُ

فقـد اتـكأ عـلى أسـلوب النفـي، لينفـي عـن نفسـه الكـبر، ويعلـو بنفسـه بتواضعـه مـع الآخريـن.

تاسعا: الحلم والأناة:

الحلـم سـيّد الأخـلاق، ويكـون أبلـغ وأقـوى تأثـيرًا عندمـا يكـون الإنسـان قـادرًا عـلى الإمسـاك بتصرفاتـه، ومسـيطرًا عـلى ردود أفعالـه، وخاصـة إذا كان يسـتطيع إنـزال العقـاب بالآخريـن، وأخْـذ حقـه بيـده أو بلسـانه كـردة فعـل مبـاشرة عـلى مـا حصـل لـه، ولكـن الحلـم والأنـاة يظهـران في هـذه المواقـف، فيكبـح الحليـم جمـاح غضبـه، ويغفـر للآخـر هفوتـه وزلتـه، وكان الأحنـف بـن قيـس مـضرب المثـل بذلـك عنـد العـرب، قـال فيـه أبـو تمـام (أبـو تمـام، ١٤٢٥هـ، ٢/ ٧٨):

إقْدامُ عمروٍ في سماحةِ حاتم
في حلمِ أحنفَ في ذكاءِ إياسِ

ويبـين الشـنفرى أنَّ السـفهاء والجهـلاء لا يسـتخفون بحلمـه، فهـو حليـم قـادر عـلى أنْ يأخـذ حقَّـه بنفسـه، وهـذا غايـة الخلـق عندمـا يعفـو عنـد مقدرتـه: (الزمخـشري، ١٣٩٩هـ، ٥٩):

وَلَا تَزْدهِي الأَجْهالُ حِلْمِي وَلَا أُرَى
سَؤُولًا بِأَعْقَابِ الأَقَاويلِ أُنْمِلُ

فهـو يتكـئ عـلى أسـلوب النفـي في إثبـات صفـة الحلـم عنـده، مبينًـا أنَّ الآخريـن لا يجهلونهـا، ويدركـون حقيقتهـا واتصافـه بهـا، وهـذا مـن بـاب الفخـر، والاعتـداد بالنفـس، ومـا تتمتَّـع بـه مـن صفـات إيجابيـة.

عاشرا: الحزم:

صفـة تعـبِّر عـن قـوة الشـخصية، والأنفـة والإبـاء، ولا يملكهـا إلا الواثـق بنفسـه مـن الرجـال، الذيـن يُقْدمـون ولا يحجمـون، وممـن يتصفـون بالأفعـال أكثـر مـن الأقـوال، وهـي تعني: ضبـط الرجـل لأمره، وأخـذه بالثقـة في الوقـت المناسـب لـه، والشـنفرى في لاميتـه يبـين أنـه حـازم في أمـوره، جاعـلا هـذه الصفة حـذاء يلبسـها، كنايـة عـن تمكنـه منهـا، وتلبُّسـه إياها، يقـول (الزمخـشري، ١٣٩٩هـ، ٥٧):

فَإِنِّي لَمولى الصَّبرِ أَجْتابُ بَزَّهُ
عَلَى مِثْلِ قَلْبِ السِّمعِ والحزْمَ أنعَلُ

يفخـر الشـاعر بنفسـه بأنـه القائـم عـلى الصـبر،

المتصرف فيه كيفما يشاء، كما أنه يحتذي الحزم، فهو ملك هذه الأشياء، وقاهرها، والمتصف بها (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ٥٨).

الحادي عشر: الاعتداد بالرأي:

يصعب على المرء أن يكون صاحب قرار سريع، ورأي سديد، إذْ تحتاج بعض الأمور إلى تؤدة وأناة، وإعمال فكر وتروٍّ في الأمر، ثم اتخاذ قرار مناسب لما هو فيه، والبتِّ في الرأي دون تردُّد، والشنفرى في لاميته ينفي عن نفسه الجبن والانهزام، كما ينفي عنها سوء الطباع والخلق السيء الذي ينتج عنه حدَّةً في الطباع، وسرعةً في الغضب، ويفخر بسرعة اتخاذه للرأي، واعتداده به، فهو يُقْدِم على الأمر، أو يحجم عنه برأيه الخاص دون تأثير من الآخرين، يقول (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ٢٧):

ولَا جُبَّأٌ أكْهَى مُرَبٍّ بِعُرْسِهِ
يُطَالِعُها فِيْ شَأْنِهِ كيفَ يَفْعَلُ

ويبين سرعة اتخاذه الرأي في موضع آخر من اللامية، بينما غيره يتحيَّر ويتردَّد في البتِّ فيه، يقول (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ٣٠):

ولَسْتُ بِمِحْيارِ الظَّلامِ إِذَا انْتَحَتْ
هُدَى الهَوْجَلِ العِسِّيفِ يَهْمَاءُ هَوْجَلُ

وهذا دال على حذقه وكياسته ووقوفه على عواقب الأمور، والتمييز بين حسنها ورديئها، وقد يكون في ذلك تلميحًا إلى أنَّ اتخاذ قراره بالرحيل عن قومه لم يكن نتيجة خلق سيء اقترفه كما قد يخطر ببال أحد، أو قلة حيلة فيه، وإنما هو نتيجة رأي خاص به، وقناعة شخصية منه، وهو القادر على مقارعة التحديات ومواجهة عواقبها بقوة رأيه، واعتداده به.

الثاني عشر: الترفُّع عن النميمة:

النميمة صفة ذميمة، وعاقبتها وخيمة، وأضرارها جسيمة، تفرِّق بين الأحبة، وبين أفراد المجتمع الواحد، فتهدم كيانه، وتشتت أركانه، وقد أدرك هذا الجاهلي أثرها منذ القدم، فترفع عنها، ونزَّه نفسه منها، لما لمس فيها من خطر كبير في التفرقة، وإثارة البغضاء والكراهية في المجتمع، وإحداث ضغينة بين أفراده، يقول في لاميته: (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ٥٩):

وَلَا تَزْدهِي الأَجْهالُ حِلْمِي وَلَا أُرَى
سَؤُولًا بِأَعْقَابِ الأَقَاوِيلِ أُنْمِلُ

اتكأ الشنفرى على أسلوب النفي، فبين أنه لا يتعقَّب الكلام، ولا ينقله للناس؛ بهدف إثارة الفتن بينهم، فهذه جريرة كبيرة عنده، أدرك خطورتها فنأى بنفسه عنها.

المبحث الثاني:

الملامح الخَلْقية للصعاليك في لامية العرب

تتصف بعض المجتمعات بخصائص معينة في البنية الجسمانية، والأوصاف الجسدية، والملامح الشخصية، وكان للصعاليك بعض الصفات التي تظهر في الخَلْق والشكل والمظهر، فهي أوصاف تتعلَّق في أجسادهم، وما يتضح على ملامحهم من سمات وخصائص جسمانية، ومن أبرز تلك الملامح الواردة في لامية العرب ما يأتي:

أولا: السرعة:

تميّز الصعاليك بالسرعة في الجري، فأكثر ما يلفت في تكوينهم الجسماني هو سرعة العدو الخارقة التي تميزوا بها عن غيرهم، ويطلق عليهم أحيانًا اسم "العدَّائين"، (الأصفهاني، ١٤٢٢هـ، ١١/ ١٣٩).

والشاعر الشنفرى اشتهر بهذه الصفة، فهو من العدَّائين الذين لا يشقُّ لهم غبار في العدو والسرعة، وكان يضرب به المثل فيقال: "أعدى من الشنفرى" (الميداني، د.ت، ٢/ ٥٤، والزمخشري،

١٣٩٩هـ، ١١)، وقد وصفه رفيقه في الصعلكة تأبط شرًّا حين يعدو بأنه "قد طار"، (الميداني، د.ت، ٢/ ٥٥)، وهو القائل: (الشنفرى، ١٤١١هـ، ص٤٢):

وإنِّي زعيمٌ أنْ ألفَّ عجاجتي
على ذي كِسَاءٍ مِنْ سَلَامانَ أو بُرْدِ

وأمشي لدى العَصْداءِ أَبْغِي سَراتَهمْ
وأسلكُ خَلًّا بينَ أرفاغَ والسَّردِ

ومن الأبيات الدالة على سرعة الشنفرى في لاميته قوله: (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ٣١):

إذَا الأَمْعَزُ الصُّوَّانُ لَاقَى مَنَاسِمِي
تَطَايرَ مِنْهُ قَادِحٌ وُمُفَلَّلُ

فهذه الصورة تحكي سرعته البليغة عندما تضرب قدمه الحجارة الصلبة فيتطاير منه الشرر، كناية عن سرعة العدو، وربْط هذا المنظر بالليل بدليل رؤية ذلك الشرر ماثلًا أمام الأعين يعمِّق الإحساس بروعة الصورة وجمالها (أبو حمدة، ١٤٠٢هـ، ٤١)، كما أنَّ شدة ضربه الأرض فلَّلت تلك الحجارة وكسرتها! وفي ذلك إشارة إلى وعورة الأراضي التي يرتادها، ومع ذلك لم تؤثر على سرعته.

ويبيِّن سرعته - أيضًا - في مباراته الطريفة مع طائر القطا في الورود إلى الماء، فيسبقها إليه لسرعته، ثم تأتي بعده فتشرب سؤره، وذلك في قوله: (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ٥٠- ٥١):

وَتَشْرَبُ أَسْآرِي القَطَا الكُدْرُ بَعْدَمَا
سَرَتْ قَرَبًا أَحْنَاؤها تَتَصَلْصَلُ

هَمَمْتُ وَهَمَّتْ وابْتَدَرْنَا وَأَسْدَلَتْ
وَشَمَّرَ مِنِّي فَارِطٌ مُتَمَهِّلُ

واختار القطا من بين سائر الطيور الأخرى لسرعتها، إذْ إنها أسرع الطيور ورودًا إلى الماء، ومع ذلك فهي تشرب سُؤره لسبقه إليه.

ومن شواهد سرعة الشنفرى في اللامية قوله: (الزمخشري، ١٣٩٩هـ،):

وَأَلْحَقْتُ أُوْلَاهُ بِأُخْرَاهُ مُوفِيًا
عَلَى قُنَّةٍ أُقْعِي مِرَارًا وأَمْثُلُ

أي أنني أقطع الأرض الواسعة ملحقًا رجلي بالأخرى، وذلك بسبب السرعة على رأس جبل، في حال كوني أجلس مقعيًا مرارًا، وأنتصب مرارًا أخرى قائمًا، فيقعي إذا خاف أن يفطن له أحد المارة فيعلم بمكانه، وينتصب إذا أمن من ذلك ليشرف على مَنْ تحته ليرصده للغارة إنْ أمكنته فرصة انتهزها...وهذا ما بيَّنه في الأبيات التي تلت البيت السابق.

ثانيا: النحافة:

يتصف الصعلوك بنحافة الجسم، ونحولة الجسد، وسبب ذلك: المعيشة التي ارتبط بها في الصحراء، فلا مأكل ولا مشرب إلا ما قلَّ أو ندر، كما أنه لا يقرُّ له قرار في أرض واحدة؛ بل إنه يتنقل بين تلك الصحاري المتنوعة، ومَنْ أكثر من المشي والركض بالإضافة إلى شدَّة الجوع الذي يتعرَّض له الصعلوك فإنَّ جسمه سيصبح نحيفًا هزيلًا، والشنفرى يبيِّن لنا شدَّة نحافة جسمه في هذه اللامية عندما قال: (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ٥٤):

وَأَعْدِلُ مَنْحُوضًا كَأَنَّ فُصُوصَهُ
كِعَابٌ دَحَاهَا لَاعِبٌ فَهْيَ مُثَّلُ

فهو يصف نفسه وحالته الهزيلة، وجسمه النحيل، متكئًا بذلك على التشبيه، ويبين أنه يتوسَّد ذراعه الهزيل الذي ذهب لحمه، ولم يبقَ فيه إلا العظم حتى إنَّ مفاصلها تشبه مكعبات بسطها لاعب فهي منتصبة ثابتة!

ويبين أنَّ سبب صعوبة استوائه على الأرض هو

نحولة جسمه، وشدَّة هزاله، إذ تنبو به فقارٌ من ظهره اليابسة (الصياصنة، ١٤١٥هـ، ٧٩)، وذلك عندما ألف الأرض وافترشها مع ما هو فيه من الجهد وسوء الحال؛ بل إنَّ عظامه ترفع جسده عن الأرض عندما ينام عليها، وذلك في قوله: (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ٥٣):

وآلَفُ وَجْهَ الأرضِ عِنْدَ افْتِرَاشِها
بِأَهْدَأَ تُنْبِيهِ سَنَاسِنُ قُحَّلُ

هذا هو جسد الصعلوك النحيل، يصوره الشنفرى بعدما أعيته عصا الترحال، وتنقَّل بين الفيافي؛ بحثًا عن لقمة يسدُّ بها جوع جسمه النحيف، الذي لم يبق به إلا عظامه الظاهرة للعيان!

ثالثا: عدم الاهتمام بالمظهر:

لم يعتن الصعاليك بمظهرهم الخارجي؛ لأنهم يعيشون في صحراء قاحلة مجدبة، فلا يتوفَّر لديهم الماء حتى يغسلوا جسدهم، ويعتنوا بنظافة شعرهم، وتسريحه، ودهنه.

ويبيِّن الشنفرى في لاميته حالته الرثة، فهو لا يسرِّح شعره، وإذا هبَّت الريح فإنها تطيره متلبدًا دون تفرُّق، والسبب أنه لم يُرجِّله، ولم يمسّه الدهن. ومن شدَّة وسخ رأسه أنه أصبح مثل العبس (وهو ما يتعلَّق بأذناب الإبل)، يقول مصورًا ذلك، متكئا في تصويره على واقعه، وما يشاهده في حياته اليومية: (الزمخشري، ١٣٩٩هـ، ٦٦):

وَضَافٍ إِذَا هَبَّتْ لَهُ الرِّيحُ طَيَّرَتْ
لبائِدَ عَنْ أَعْطَافِهِ مَا تُرجّلُ

بَعِيدٌ بِمَسِّ الدُّهنِ والفَلْيِ عَهْدُهُ
لَهُ عَبَسٌ عَافٍ مِنَ الغِسْلِ مُحْوِلُ

فالهيئة الرثة، والشكل الخارجي للصعلوك لم يكن ذا اهتمام كبير يمثِّله، أو يعني له شيئًا؛ بل إنَّ الحياة الخشنة، وسوء الفقر الذي لازم هذه الفئة من الناس أوصلهم إلى هذا الحال، فتعوَّدوا عليه منذ زمن بعيد.

خاتمة البحث:

هدفت الدِّراسة إلى الكشف عن ملامح الصعلوك الخَلْقية والخُلقية في قصيدة "لامية العرب" للشنفرى، وذلك في وصف الشاعر نفسه بها، وخرجت الدراسة بالنتائج الآتية:

- من أهم السمات والخصائص الخُلقية للصعلوك في لامية العرب: الغربة والعزلة عن المجتمع، والعيش بعيدًا عنه في الصحراء الموحشة بين الوحوش والسباع، والاتصاف بالشجاعة والقوة، والصبر وقوة التحمُّل والجلد في هذه الحياة الصحراوية الشاقة، وعزَّة النفس التي لا تقبل الذلَّ من أحد ولا التفضُّل عليها، والعفة، والزهد والقناعة بالقليل من الطعام والشراب، وكثرة الهمِّ والغمِّ الذي يلاحقه ولا يكاد يبرحه في حياته، والتواضع عند الآخرين وعدم التكبر، والحلم والأناة وعدم الانتقام والحقد، والحزم في الأمور إذا دعت الحاجة إلى ذلك، والاعتداد بالرأي وقوته وعدم أخذه من ضعفاء القوم وممن لا يملكون رأيًا وحزمًا، والترفُّع عن النميمة والبعد عنها لما فيها من أثر كبير في التفرقة بين الناس، وقد تمثَّل الشنفرى بجميع هذه الصفات، ومدح نفسه بالاتصاف بها.
- من أهم الملامح الخَلْقية للصعاليك في لامية العرب، ووصف بها الشنفرى نفسه: نحافته وضموره حتى يكاد الجسم يكون عظمًا بلا لحم يتوسَّده عند نومه فيرفعه عن الأرض، وكذلك عدم الاهتمام بالمظهر والشكل، سواء أكان في اللبس، أم الجسم، والشَّعر الذي لا يعرف الغسل والدهن، مما يعكس سوء

حالتهم المعيشية، وبحثهم عن تأمين لقمة عيشهم اليومية بعيدًا عن ترف الحياة وزينتها، وكذلك سرعة العدو التي لا يستطيع أحد أن يباريهم بها، وخاصة الشنفرى الذي كان يضرب به المثل في العدو، مما جعلها وسيلتهم الأولى للهرب من خصومهم أثناء اللقاء.

ثبت مصادر البحث ومراجعه

١.ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، ١٤١٠هـ= ١٩٩٠م، لسان العرب، الطبعة الثالثة، بيروت، لبنان، دار صادر.

٢.أبو حمدة، محمد علي، ١٤٠٢هـ= ١٩٨٢م، في التذوق الجمالي للامية العرب (للشنفرى)، الطبعة الأولى، عمان، الأردن، مكتبة الأقصى.

٣.إسماعيل، بشار سعدي، ٢٠١٤م/ ٢٠١٥م، شعر الصعاليك الجاهليين في الدراسات الأدبية والنقدية القديمة والحديثة، الطبعة الأولى، عمان، الأردن، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع.

٤.الأصفهاني، أبو الفرج، ١٤٢٢هـ= ٢٠٠٢م، كتاب الأغاني، شرحه وكتب هوامشه الأستاذ سمير جابر، الطبعة الرابعة، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية.

٥.التبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي الشيباني، د.ت، شرح المفضليات، (القسم الأول) تحقيق علي محمد البجاوي، د.ط، دار نهضة مصر للطبع والنشر.

٦.حفني، عبدالحليم، ١٩٨١م، لامية العرب للشنفرى، الجماميز، مكتبة الآداب ومطبعتها.

٧.حفني، عبدالحليم، ١٩٨٧م، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٨.الخالديان، أبو بكر محمد، وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم، ١٩٦٥م، كتاب الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين، حقّقه وعلّق عليه د. السيد محمد يوسف، د.ط، بيروت، لبنان، دار الشآم للتراث.

٩.خليف، يوسف، ١٩٧٨م، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، الطبعة الثالثة، القاهرة، دار المعارف.

١٠.الزمخشري، ١٣٩٩هـ، أعجب العجب في شرح لامية العرب (مجموعة الرسائل الكمالية رقم١١)، الطبعة الثانية، القاهرة، مكتبة المعارف.

١١. شداد، عنترة، ١٤١٧هـ= ١٩٩٦م، ديوان عنترة، تحقيق: محمد سعيد مولوي، الطبعة الثالثة، الرياض، المملكة العربية السعودية، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع.

١٢.الشنتمري، أبو الحجاج يوسف، ١٤٢٥هـ= ٢٠٠٤م، شرح ديوان أبي تمام، دراسة وتحقيق إبراهيم نادن، الطبعة الأولى، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

١٣.الشنفرى، ١٤١١هـ= ١٩٩١م، ديوان الشنفرى "عمرو بن مالك نحو ٧٠ ق.هـ"، جمعه وحقّقه وشرحه د. إميل بديع يعقوب، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، دار الكتاب العربي.

١٤.صبري، محمد، ١٩٤٢م، الشوامخ "الشعر الجاهلي: خصائصه وأعلامه"، د.ط، دار الكتب العلمية.

١٥.صفدي، مطاع، وإيليا حاوي، ١٩٧٤م، موسوعة الشعر العربي (١) الشعر الجاهلي، أشرف عليها د.خليل حاوي، د.ط، بيروت، لبنان، شركة خياط للكتب والنشر.

١٦.الصياصنة، مصطفى عيد، ١٤١٥هـ=١٩٩٥م،

الشنفرى الأزدي أمير الشعراء الصعاليك، الطبعة الأولى، الرياض، دار المعراج الدولية للنشر.

١٧.الضبعي، المتلمس، ١٣٩٠هـ= ١٩٧٠م، ديوان المتلمس الضبعي، حقَّقه وشرحه وعلَّق عليه حسن كامل الصيرفي، د.ط، القاهرة، معهد المخطوطات العربية.

١٨.الطائي، حاتم، ١٤٠٦هـ= ١٩٨٦م، ديوان حاتم الطائي، شرحه وقدَّم له: أحمد رشاد، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية.

١٩.عبدالجابر، سعود محمود (دراسة وتحقيق)، ١٤٠٤هـ= ١٩٨٤م، شعر الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم، الطبعة الأولى، بيروت، مؤسسة الرسالة.

٢٠.العكبري، أبو البقاء عبدالله بن الحسين، ١٤٠٣هـ= ١٩٨٣م، شرح لامية العرب، الطبعة الأولى، بيروت، منشورات دار الآفاق الجديدة.

٢١.القاضي، محمد عبدالحكيم، وآخرون، ١٩٨٩م، بلوغ الأرب في شرح لامية العرب، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الحديث.

٢٢.قيس، ميمون، ديوان الأعشى الكبير، ١٤٠٧هـ= ١٩٨٧م، شرحه وقدم له مهدي محمد ناصر الدين، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية.

٢٣.القيسي، نورى حمودي، وحاتم صالح الضامن، ١٩٧٧م، ديوان معن بن أوس المزني، الطبعة الأولى، بغداد، مطبعة دار الجاحظ.

٢٤.لامية العرب: نشيد الصحراء لشاعر الأزد (الشنفرى)، ١٩٨٥م، بيروت، لبنان، منشورات دار مكتبة الحياة.

٢٥.لجنة من الأساتذة بالأقطار العربية، ١٩٦٩م، الموجز في الأدب العربي وتاريخه (الأدب الجاهلي)، د. ط، لبنان، دار المعارف.

٢٦.الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، د.ت، الأمثال، د. ط، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية.

٢٧.نور الدين، حسن جعفر، ١٤٢٨هـ= ٢٠٠٧م، موسوعة الشعراء الصعاليك (الصعلكة والشعر الصعلوكي في الميزان)، د.ط، بيروت، لبنان، رشاد برس للطباعة والنشر والتوزيع.

References

1. Ibn Manzoor, Jamaluddin Mohammad bin Makram, 1410 AH = 1990 AD, Lisanul Arab, third edition, Beirut, Lebanon, Dar Sader.

2. Abu Hamda, Mohammad Ali, 1402 AH = 1982 AD, In the Aesthetic Appreciation of Lamiyyat Alarab (by Alshanfari), first edition, Amman, Jordan, Al-Aqsa Library.

3. Ismail, Bashar Saadi, 2014 AD / 2015 AD, The Poetry of Pre-Islamic Wretches in Ancient and Modern Literary and Critical Studies, first edition, Amman, Jordan, Dar Majdalawi for Publishing and Distribution.

4. Alasfahani, Abul Faraj, 1422 AH = 2002 AD, Book of Songs, explanation and annotations by Professor Samir Jaber, fourth edition, Beirut, Lebanon, Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah.

5. Altabrizi, Abu Zakaria Yahya bin Ali Al-Shaibani, n.d., Explanation of the Favorites, (Section One), verified by Ali Mohammad Albajawi, n,d., Nahdet Misr Publishing House.

Dr. Emile Badi' Yacoub, first edition, Beirut, Lebanon, Dar Al-Kitab Al-Arabi.

14. Sabri, Mohammad, 1942 AD, Al-Shawamikh, "Pre-Islamic Poetry: Its Characteristics and Scholars", n.ed, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah.

15. Safadi, Mutaa, and Elia Hawi, 1974 AD, Encyclopedia of Arabic Poetry (1) Pre-Islamic Poetry, supervised by Dr. Khalil Hawi, n.ed, Beirut, Lebanon, Khayat Books and Publishing Company.

16. Alsayasenah, Mustafa Eid, 1415 AH = 1995 AD, Alshanfari Alazdi, Prince of Wretched Poets, first edition, Riyadh, Dar Almi'raj for Publishing.

17. Aldhab'e, Almutalmis, 1390 AH = 1970 AD, Diwan Almutalmis Aldhab'e, verified, explained and commented on by Hassan Kamel Alsairafi, n,ed, Cairo, Institute of Arabic Manuscripts.

18. Alta'i, Hatem, 1406 AH = 1986 AD, Diwan Hatim Alta'i, explained and prefaced by: Ahmad Rashad, first edition, Beirut, Lebanon, Dar Al-Kotob Al-Ilmiyya.

19. Abdul Jaber, Saud Mahmoud (Study and Verification), 1404 AH = 1984 AD, Poetry of Alzabarqan bin Badr and Amr bin Alahtam, first edition, Beirut, Al-Resalah Foundation.

20. Al'akbri, Abul Baqaa Abdullah bin Alhussein, 1403 AH = 1983 AD, Explanation of Lamiyyat Alarab, first edition, Beirut, New Horizons publications.

21. Alqadi, Mohammad Abdulhakim, et al., 1989 AD, Achieving the goals in explaining Lamiyyat Alarab, first edition,

6. Hefni, Abdulhalim, 1981 AD, Lamiyyat Alarab by Alshanfari, Jamamis, Arts Library and Press.

7. Hefni, Abdulhalim, 1987 AD, The Poetry of the Wretches, Its Approach and Characteristics, The General Egyptian Book Authority.

8. Alkhalidian, Abu Bakr Mohammad, and Abu Othman Saeed Ibna Hashim, 1965 AD, The Book of Alashbah and Alnazha'er from the Poems of the Predecessors, the Pre-Islamic and the Veterans, verified and commented on by Dr. Alsayyed. Mohammad Youssof, n.ed., Beirut, Lebanon, Dar Al-Sham for Heritage.

9. Khulaif, Youssef, 1978 AD, Wretching Poets in the Pre-Islamic era, third edition, Cairo, Dar El Maaref Liberary.

10. Alzamakhshari, 1399 A.H., "The Most Amazing Astonishment in the Explanation of Lameyyat Alarab" (Kamaliyyah Letters Collection No. 11), second edition, Cairo, Al-Maaref Library.

11. Shaddad, Antarah, 1417 AH = 1996 AD, Diwan Antara, verified by: Mohammad Saeed Mawlawi, third edition, Riyadh, Saudi Arabia, Dar Alam Al-Kutub for Printing, Publishing and Distribution.

12. Alshantamari, Abul-Hajjaj Yousof, 1425 AH = 2004 AD, Explanation of Diwan Abi Tammam, verified by Ibrahim Naden, first edition, Publications of the Ministry of Endowments and Islamic Affairs.

13. Alshanfari, 1411 AH = 1991 AD, Diwan Alshanfari "Amr bin Malik about 70 BH", compiled, verified and explained by

Cairo, Dar al-Hadith.

22. Qais, Maymoon, Diwan Ala'sha Alkabeer, 1407 AH = 1987 AD, explained and prefaced by Mahdi Mohammad Nasiruldin, first edition, Beirut, Lebanon, Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah.

23. Alqaisi, Nouri Hamoudi, and Hatem Salih Aldhamin, 1977 AD, Diwan Ma'an bin Aws Almuzni, first edition, Baghdad, Dar Al-Jahiz Press.

24. Lamiyyat Alarab: The Anthem of the Desert by the poet of Alazd (Al-Shanfari), 1985 AD, Beirut, Lebanon, Al-Hayat Library Publications.

25. A Group of Professors in Arab Countries, 1969 AD, Synopsis in Arabic Literature and its History (Pre-Islamic Literature), n.ed, Lebanon, Dar Al Maaref.

26. Almaidani, Abulfadhl Ahmad bin Mohammad Alnaisaburi Amaidani, n.d., Alamthal, n.ed., Beirut, Lebanon, Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah.

27. Nouruldin, Hassan Ja'afar, 1428 AH = 2007 AD, Encyclopedia of Wrenching poets (Evaluating Wretchness and Wretching poetry), n.ed, Beirut, Lebanon, Rashad Press for Printing, Publishing and Distribution.